## المنهج الوسطي للإسلام ووحدة الأُمَّة الإسلاميَّة

المنهج الوسطي للإسلام ووحدة الأُمَّة الإسلاميَّة

الدكتور محمّد الكتّاني

عميد كليّة الآداب في مدينة تطوان – المغرب

بسم ا∐ الرحمن الرحيم

الحمد □ ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيّبين وصحابته المجتبين.

فإن من موجبات حمد ا□ أن هياً كي أسباب حضور هذا المؤتمر الإسلامي الكبير الذي نظ مه المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامي قي بجمهورية إيران الإسلامي قي القائمين بهذا المؤتمر وبالمجمع العالمي والعاملين في سبيل تحقيق ما يتطل ع إليه من أهداف عليا خير الجزاء.

وإنَّي وإن كنت لم أتوقَّع هذا الحضور في هذا المؤتمر من قبل، وإنَّما جاء حضوري بأُخرة من الوقت فلم أَع ِدُّ له بحثا ً يناسب المقام إلا أنَّني لم أستطع إمساك نفسي عن المشاركة في الحوار والإدلاء لدى هذا المؤتمر ببعض الأفكار والتماسي الحكمة والفائدة من العلماء الأجلاء المشاركين فيه، وهذه مناسبة بلا شكَّ تجيش فيها نفوس المؤمنين بأنبل العواطف وأعمق الأفكار حول عظمة رسالة الإسلام في إنقاذ البشريَّة من الأوهام فيما يرجع أولا ً وأخيرا ً إلى حقيقة التوحيد با□ وما يترتب على الإذعان لهذه الحقيقة الكونيَّة

 $_{-(282)}_{-}$ 

العليا من أصول الإيمان وفروع العمل ممّا جاء بيانه في القرآن الكريم مفصّلاً، وجاء في السّنّة النبوية مشخّصاً ومطبّقاً.

 مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَناَ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ □(2) □... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسُرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسُرَ...□(3).

ومنهج الإسلام في الخطاب الإلهي — وهذا مهم ّ جدا ً — يكامل بين العقل والنقل، بين الوحي والاجتهاد، ويطالب العقل بالاعتبار وبالتفكير: □... ف َاع ْ ت َب ِر ُوا ي َا أُول ِي ا ْلاَ َب ْ ص َار ِ □(4) ومعنى الاعتبار في الأحكام قياس الفروع على الأُصول بشروط مقر ّرة، ومعنى الاعتبار في النظر قياس الغائب على الشاهد، ومعنى الاعتبار في السلوك والمواقف

\_\_\_\_

1 - سورة البقرة: 143.

2 - سورة البقرة: 286.

3 - سورة البقرة: 185.

4 - سورة الحشر: 2.

\_(283)\_

اعتبار الحوادث الإنسانيّة خاضعة لناموس إلهي لا يتغيّر: ⊡سنُنَّةَ اللَّهَ ِ فَي الَّنَذَينَ خَلَوْا مَن قَبْلُ وَلَن تَجَدَ لَيسنُنَّةَ ِ اللَّهَ مَ تَبْدَدِيًلا⊡(1) والاعتبار أيضا ً بالتاريخ وبحوادثه.

وهذا المنهج هو المنهج الوسطي، ولكنّه المنهج الشمولي الكوني الذي ارتضاه ا□ لهذه الإنسانيّة، وقد توافرت هذه المقوّمات الأساسية في المنهج الإسلامي — كما رأيناه — وفي نظامه الاجتماعي، وفي شريعته الجامعة بين الثوابت والمتغيّرات فكانت منطلقا ً لتكوين الأُمّة الإسلاميّة الوسط، أي الأُمّة ذات المنهج الأمثل للحياة الإنسانيّة القائمة على التوحيد والعدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتكونت هذه الأُمَّة الإسلاميَّة بالفعل فتحَّققت لها بفعل صلاحيَّة هذا المنهج السيادة والانتشار وخضوع الأقوام والأجناس لها ممَّا هو مقرر في التاريخ، ولا معنى لإثارته هنا، ثم أصاب هذه الأُمَّة الضعف والخلل والوهن بقدر ما حادت عن منهج الإسلام ووسطيَّته من ناحية وبقدر ما اتَّسعت رقعتها واختلف الأقوام في هذه الرقعة الواسعة حول السلطة وحول الخلافة وحول المواقف اللازم اتَّخاذها من النزاع حول هذه المسائل.

فانقسم المسلمون أولا ً إلى فرق ٍ سياسي ّة ثم ّ إلى فرق كلامي ّة ثم ّ إلى فرق ٍ فقهي ّة على نحو ما هو معروف. وبعد قرون من التمز ّق السياسي والصراع المذهبي تمك ّن أعداء الإسلام من التآمر على دول الإسلام، فقد استجمع العالم الصليبي قواه بعدما أصابه الذهول تطويق المسلمين للعالم القديم كل ّه ومن تطويق المسلمين لأوروبا نفسها، وهي وا أنفسهم للهجمات المتعد ّدة التي كشفت — مع الأسف — مع توالي الأيام عن ضعف المسلمين وتفر ّق كلمتهم، فوضعت أوربا خططها للهيمنة على العالم الإسلامي وانتهى الأمر بالمسلمين — كما نعلم — في أخريات القرن الماضي إلى حالة من الترد ّي لا مزيد عليها.

\_\_\_\_

1 - سورة الأحزاب: 62.

 $_{(284)}$ 

لكن ننتبه إلى المعجزة الإسلاميّة تتجدّد مرّة أخرى، لقد ظنّ الظّانون في نهاية القرن التاسع عشر من مستشرقين وعلماء تاريخ وساسة أن قوّة المسلمين قد ذهبت للأبد.

لقد تبيّن للمستعمرين الأوربيين أنّ بسط سلطانهم على العالم الإسلامي لا يمكن أن يتمّ إلا بسلاح فتّاك يعمل عمله من الداخل، لا في المواجهات المكشوفة، وذلك السلام من شأنه أن يبدّد طاقاتهم في معارك مصطنعة، معارك تضليليّة، وعن طريق بذر الخلافات الدائمة والمتجدّدة بين شعوبهم.

ومادام الدين الإسلامي — في نظرهم — هو القوّة التي لا يمكن مواجهتها مباشرة ولا يمكن محاربتها، فبالإمكان تمزيقها إلى مذهبيّات وقوميّات واصطناع الخلافات المذهبيّة القائمة على الخنادق العميقة من الخلاف. وفي سياق هذه الحرب الخفيّة والمعلنة على الإسلام والمسلمين استطاع أعداؤنا أن يستغلوا سلاح التفرقة المذهبيّة حيناً، وأن يستغلّوا الصراع حول المصالح الغربيّة والنعرات القوميّة التي تجعل الأواصر العرقيّة أقوى من العناصر الدينية حيناً آخر، وهكذا اتّجهت الغارة نحو العالم الإسلامي في جبهات متعدّدة، اتّجهت أولاً: وبمساعدة العملاء، لإثارة العرقيّات والقوميّات، واتّجهت ثانياً: لتعميق الخلاف المذهبيّ وإثارة كلّ ما يمكن من الخرافات والأساطير حوله، واتجهت ثالثاً: إلى الثقافة الإسلاميّة في الجامعات والمدارس، ثم تحرّكت الدعوة في العالم العربي — وهذا شيء مهم — للدعوة إلى ترك اللغة العربيّة الفصحي والأخذ بالعاميّات لتمزيق العالم العربي تمزيقاً لا قيام بعده.

في هذا المنعطف التاريخي الدقيق أصبح من الواجب توظيف الصحوة الإسلاميّة لحماية كلّ قاعدة من القواعد التي اتّجهت إليها هذه الغارة، وهنا ينبغي أن نتقيّد بمنهج الإسلام في الاستجابة لهذا التحدّي الخطير، وأقصد بالمنهج الإسلامي ذلك المنهج القرآني

\_(285)\_

الذي انتهجه خطاب ا□ تعالى للبشريَّة من الدعوة إلى التوحيد والإخوَّة الدينيَّة وتكوين المجتمع الإسلامي على أسس راسخة.

وكان هذا المنهج — كما نعلم — ينتقل بالتدريج من العام إلى الخاص، ومن الدعوة إلى ا□ بالحكمة لمن تناسبه الحكمة وبالموعظة الحسنة لمن تناسبه الحكمة والموعظة الحسنة، وبالجدال بالتي هي أحسن لمن يستحقّون هذا الجدال، وكان هذا المنهج في لبابه يقوم على تخلية القلوب ممّا ران عليها من الشك والوثنيّة، والعقول ممّا أعماها من التبعيّة والتقليد، حتّى إذا انكشف للقلب والعقل معا ً صفاء الحقيقة اندفعا إليها بدون هوادة ولا تردّد.

واليوم نحن في أشد ما نكون حاجة لهذا المنهج، منهج قلع الأشواك والأحجار من طريق السير نحو المكاشفة بين الشعوب الإسلاميّة، منهج إخلاء القلوب والعقول ممّّا ترسّب فيها من أوهام وتصورات خاطئة جعلت كل شعب من الشعوب الإسلاميّة يتوجّس خيفة من الشعب الآخر، ثم ملء هذه القلوب وهذه العقول بالحقائق الموضوعيّة عن القواسم المشتركة بيننا جميعاً، تاريخاً وعقيدةً وثقافةً ورؤيةً حضارية متميّزة. وهذا المنهج — في نظري — لا بدّ له من تخطيط، ولا بدّ له من مراحل:

المرحلة الأولى: تحقيق التعارف بيننا بصفتنا مسلمين، لأنسّني أنا شخصيا ً أقف لأول مرسّة في بلاد

الجمهورية الإسلاميّة في إيران على حقائق كاشفة قاهرة بالمعانية، الأمر الذي لم يكن متاحا ً لي عن طريق الكتب والمؤلّ َفات، فهذا التعارف يجب أن يتاح لكلّ بلد اسلامي، وأن يتمكّن كلّ المسلمين من معرفة الشعوب الإسلاميّة الأُخرى بكل وسائل الإعلام والتعليم، والاتصال، والأسفار، والملتقيات، والمؤتمرات، وما في حكم هذا المعنى.

ونحن نعلم أنَّ هذا التعارف أتاحه ُ الإسلام في فريضَة الحج، فينبغي أن نطوّره ونذهب بعيدا ً في تطويره بكل الوسائل. في هذا المرحلة من التعارف الذي يجب أن تسخّر

\_(286)\_

له كل وسائل الإعلام العصريّة يتعيّن على العلماء والمفكّرين بشكل خاص أن يطّلعوا على كلّ ما يتعلّق بالبلاد الإسلاميّة ونشر ذلك لأقوامهم.

المرحلة الثانية: العمل على التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، لأنّ َ المذاهب الإسلاميّة حقيقة قائمة، ولا يمكن تجاهلها، إلا أنّ َنا ينبغي أن نهتم بهذا التقريب في المستوى العلمي وفي المستوى الكلامي والتشريعي على نحو مفصّل.

وأنا أُريد هنا أن أورد كلمة لأحد العلماء الشيعة الأفاضل وهو العالم محمّد تقي القمي الذي كان من روِّاد التقريب؛ يقول في كلمة من كلماته الوصَّاءة: «إنَّ َ الطوائف التي نعمل على التقريب بينها هي السنَّة بمذاهبها، والشبعة الإماميَّة والشبعة الزيديَّة، فهل المسائل التي اختلف فيها هؤلاء أدّت إلى أن كفّرت بها طائفة صاحبتها ؟ الجواب: كلا فإنَّ أحداً من علماء هذه الطوائف لم يرم الطائفة الأخرى بالكفر ولم يقذفها بالمروق من الإسلام، وما ذلك إلا لأنَّ الخلاف إنَّما وفع في الفروع، لا في الأُصول، ولعل فائلاً يقول: ما هذه الأُصول التي تجعل حدّاً فاصلاً بين المسلمين جميعاً وغيرهم؟»يقول الشيخ القمي – أذكر له على سبيل المثال لا على سبيل الحصر -: «نحن جميعاً نؤمن با ربَّاً وبمحمد صلَّى القمي – أذكر له على سبيل المثال لا على سبيل الحصر -: «نحن جميعاً نؤمن با وبيّاً وبمحمد صلَّى الإسلام مبني على القواعد الخمس المعروفة، وبأنه ليس بعده دين، ولا بعد رسوله رسول، بأنَّ كلِّ ما جاء الإسلام مبني على القواعد الخمس المعروفة، وبأنه ليس بعده دين، ولا بعد رسوله رسول، بأنَّ كلِّ ما جاء به محمّد صلَّى القواعد الخمس المعروفة، وبأنه ليس بعده دين، ولا بعد رسوله رسول، بأنَّ كلِّ ما جاء إنَّ نا متَّفقون على هذه الأُصول) ». ثم يقول بعد ذلك: «إنَّه ليس من أغرامنا أن يتشيَّع سننَّي ولا أنَّ يتسنَّن شيعي، بل لو نظرنا إلى أصل التَّسمية في هذين الاسمين لوجدنا المسلمين كلَّهم شيعة لأنَّهم جميعاً يحبَّون آل البيت، آل بيت رسول ا التَّسمية في هذين الاسمين لوجدنا المسلمين كلَّهم شيعة لأنَّهم

المرحلة الثالثة: مرحلة تنظيم التقريب على مستوى التربية والتعليم، وأنا بصفتي

 $_{-(287)}_{-}$ 

رجلا مربيا ً واستاذا ً في الجامعة أهتم ّ بهذا الجانب غاية الاهتمام، فينبغي أن تكون في مقر ّرات دراساتنا في جميع المدارس والجامعات وجميع المستويات مقر ّرات من شأنها أن تبلسّغ حقيقة الإسلام (تفضّل الشيخ سعيد شعبان من قبل وأشار إلى أن هذه الطرق والمناهج يجب أن تجعل المسلم مسلما ً أولا ً وقبل كل ّ شيء).

ولابد "في هذه المرحلة من ات خاذ خطوة صريحة أقترحها على هذا المؤتمر الكريم، وهي أن لا نهمل اللغات في مسألة التقريب، ففي البلاد العربي قللها تجد أحدا ً يتعله في الجامعة اللغات الإسلامي الأخرى، وفي الجامعات الإسلامي قير العربي قله قله التجد طلابا ً يقبلون على اللغة العربية، فينبغي أن نتبادل ونتقاسم التعليم للغات الإسلامي وأن نجعل لغة القرآن لغة مقر رة كلغة ثانية بعد اللغة الأم على الأقل، لأن ننا نخجل من أن يتعارف المسلم مع المسلم بلغة أجنبي أن كالإنجليزية والفرنسية، لأن المثقف لا يتأثر بهذه اللغة إلا إذا تأثر بفكرها، فينبغي أن نتقارب لغويا ً ما أمكن ذلك وأن نخط الهذا التقريب اللغوي بين العالم الإسلامي.

إن هذه المراحل التي أقترحها لتحقيق التقريب ليست منفصلة بعضها عن بعض، بل ينبغي أن تكون متزامنة متكاملة وهي جميعها تتطلّب اتّخاذ قرارات وتخطيطات موح ّدة لتحقيق ذلك التعارف والتضامن والتآلف بين المسلمين. وهذا الاتجاه المقصود منه هو إعزاز دين ا□ في الأرض وضمان الأمن السياسي ّ والاجتماعي ّ للأمم الإسلامي ّة لتحقيق الرسالة الوسطي ّة التي أشرنا إليها، هذه الرسالة التي ينتظر العالم الكافر أن نبل ّغها إليه.

فينبغي أن لا نكتفي أن نكون مسلمين وإنّما ينبغي أن نبلّغ الدعوة لأنّ هذا هو الواجب أي أنّه يقع على عاتقنا — نحن المسلمين — جميعا ً أن نكون أولا ً مثالا ً للإسلام، وأن ننقل هذا الإسلام إلى غيرنا. وإذا كان كما يقرّر الأصوليون «ما لا يتمّ الواجب إلا به فهو

 $_{(288)}_{}$ 

واجب» فواجب الوحدة يعتبر طريقا ً إلى تحقيق الأُمّة الإسلاميّة العظمي.

شكر ا□ لنا ولكم جميعا ً َ ما نقوم به من جهود ووفّق العاملين في سبيل الوحدة، وشكر ا□ جهود المجمع العالمي للتقريب، ووفّقني ا□ وإيّاكم لما فيه خيره ورضاه، والسلام عليكم ورحمة ا□.